

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (ولادة رسول الله ﷺ ورضاعته) : وُلِدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين ليلتين خلتا من ربيع الأول ، وقيل : ثامنه ، وقيل عاشره ، وقيل لثنتي عشرة منه ، وقال الزبير بن بكار : ولد في رمضان ، وهو شاذ ، حكاه السهيلي في روضه . وذلك عام الفيل ، بعده بخمسين يوماً ، وقيل بثمانية وخمسين يوماً ، وقيل بعده بعشر سنين ، وقيل : بعد الفيل بثلاثين عاماً ، وقيل : بأربعين عاماً ، والصحيح أنه ولد عام الفيل ، وقد حكاه إبراهيم بن المنذر الحزامي شيخ البخاري ، وخليفة بن خياط وغيرهما إجماعاً] .

هذا فصلٌ عقده الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في بيان ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام ورضاعته ، وبدأ أولاً فيما يتعلق بتاريخ ولادة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في أي يوم من أيام الأسبوع وُلِدَ ﷺ ؟ وفي أي شهر من شهور السنة ولد عليه الصلاة والسلام ؟ وكذلك في أي يوم من أيام الشهر ولد ﷺ ؟ .

قال رحمه الله : ((ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين)) فمن حيث أيام الأسبوع كانت ولادته عليه الصلاة والسلام في يوم الاثنين ؛ وهذا باتفاق أهل العلم ولا خلاف في ذلك ؛ ولهذا بدأ به ابن كثير رحمه الله تعالى قبل غيره . فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه ﷺ سئلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ قَالَ : ((ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ)) ، وهذا الحديث تضمن أمرين يتعلقان بيوم الاثنين :

١ - أنه اليوم الذي وُلِدَ فيه عليه الصلاة والسلام .

٢ - وأنه اليوم الذي أنزل عليه ونبي ﷺ فيه .

وكذلك هاجر عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وكان وصوله إلى المدينة يوم الاثنين ، وكذلك كان يوم وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين . فقد جاء في المسند للإمام أحمد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ((وُلِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَاسْتُنْبِئَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَتُوِّفِيَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَرَجَ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ)) .

وبهذه النبوة عمّ الخير وشعّ النور وانتشر الضياء وخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام بُعث في وقت نظر الله ﷻ فيه إلى أهل الأرض فمقتهم عرّهم وعجمهم إلا بقايا - قلة على وجه الأرض - من أهل الكتاب ، وإلا فالأرض كلها طبقت ظلاماً وكفراً وشركاً وضياءً ، فنبئ عليه الصلاة والسلام في يوم الاثنين وبدأ الضياء والنور والخير ؛ فكانت لهذا اليوم هذه المكانة .

وقد أرشد عليه الصلاة والسلام إلى الطريقة التي تكون تجاه هذا اليوم ألا وهي : صيام يوم الاثنين من كل أسبوع ، فكان عليه الصلاة والسلام يصوم هذا اليوم ، وأيضاً السلف رحمهم الله تعالى لهم عناية بصيام هذا اليوم ، وهذا الذي جاءت به السنة تجاه يوم مولده . لأنه اليوم الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام ، واليوم الذي نبئ فيه ، واليوم الذي هاجر فيه إلى المدينة ، واليوم الذي وصل فيه إلى المدينة ، واليوم الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام وجاء أيضاً في حديث آخر ثابت قال ﷺ عن يوم الاثنين والخميس أنهما تُعرض فيهما الأعمال على الله ﷻ ولهذا ذهب جماعة من أهل العلم أن صيام الاثنين أكد من صيام الخميس ؛ لكونه فيه أكثر من حكمة .

وهذه السنة المباركة ثقيلة على كثير من النفوس ، لأن الصيام فيه منع للنفس من الطعام والشراب والشهوة إلا من أعانه الله ﷻ ويسّر له ذلك ، فهذا الأمر العظيم المبارك الذي فعله عليه الصلاة والسلام وأرشده إلى فعله استعاض عنه بعض الناس بأشياء أحدثوها زعماء أنهم يعبرون بها عن فرحهم بمولده ﷺ ، فخصّصوا يوماً في السنة يحتفلون ليلته بمولده ، وقُل ما شئت عما يحدث في كثير من البلدان من منكرات وفضائع وشنائع يزعمون أنهم يمارسونها فرحاً بمولد النبي عليه الصلاة والسلام !! لكن عدداً من هؤلاء إذا بحثت عنهم يوم الاثنين من حيث صيام هذا اليوم المبارك لا تجدهم - وهو سنة لا يجب صيامه - ، وبعضهم إذا بحث

عنهم في طاعة النبي عليه الصلاة والسلام في أداء فريضة الصلاة لا تجدهم ؛ لكن هذه الاحتفالات لما فيها من متعة ومن لهو ومن حظوظ النفس لا تفوّت ، ولما أُشربت قلوبهم بها أصبح من لا يحتفل تلك الليلة ليس محباً للنبي عليه الصلاة والسلام ؛ حتى لو كان يواظب على صيام الاثنين ويواظب على الفرائض ويتجنب المنكرات والمحرمات !! وهذا - حقيقة - ناشئ عن عدم إدراك للطريقة الصحيحة التي يُعبّر بها عن محبته ﷺ . وإذا فُتح الباب لكلّ على مصراعيه جاءت العجائب والغرائب ؛ فكل سيعبّر عن محبته للنبي عليه الصلاة والسلام بطريقة يراها وأسلوب يخترعه ؛ لكن الواجب أن يكون التعبير عن محبة النبي عليه الصلاة والسلام في حدود الشرع ، وفي ضوء الهدي النبوي ، وعلى سنن الصحابة رضي الله عنهم ، لا يُعرف في أمته عليه الصلاة والسلام أشد حباً له من أصحابه رضي الله عنهم وقد شهد لهم بالخيرية والسابقة والفضيلة والعدالة ولم يحتفلوا إطلاقاً ولم يُنقل عنهم شيء من ذلك ، ولا عن التابعين ولا عن أتباعهم ؛ حتى القرن الثالث نشأت فيه مثل هذه الأعمال ، أما القرون الأولى كانت على الجد والاجتهاد والصبر والمصابرة والمراعاة وكانوا أصدق الناس حباً للنبي عليه الصلاة والسلام وأعظمهم إتباعاً لنهجه القويم وصراطه المستقيم صلوات الله وسلامه عليه . أبو بكر رضي الله عنه ، عمر ، عثمان ، علي ، العشرة المبشرين ، أزواج النبي ﷺ رضي الله عنهم ، وبقية الصحابة إطلاقاً لم يحتفلوا ، أفيكون هذا الاحتفال خيراً فات الصحابة وحصله من بعدهم ؟!! حاشا والله ، لو كان خيراً لسبقونا إليه ولكانوا أولى الأمة به رضي الله عنهم وأرضاهم ؛ فلا كان ولا يكون مثلهم في الفضيلة والسابقة وصدق المحبة للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وصيام الإنسان لليوم الذي ولد فيه بدعة من البدع ومحدث ، وبعض الناس قال بذلك قياساً على ما جاء في الحديث : ((ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ)) لكن هذا قياس فاسد ، والعبادات مبنية على التوقف ، وهذا العمل ولا شك من البدع المحدثّة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان . وفي هذا الموضوع مما سمعناه من الوالد الكريم في شرحه لسنن أبي داود ، قال في التعليق على حديث أبي قتادة في صحيح مسلم ((ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَأُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ)) : " لكن كونه يُعلّل بأنه يوم ولد فيه وأنزل عليه فيه القرآن هذا يدل على فضل صيام يوم الاثنين ، ثم إن بعض الذين فُتنوا بالمولد يستدلون على إقامة مولد النبي ﷺ بهذا الحديث ، وفي الحقيقة هذا

الحديث ليس فيه دليل لهم ، لأنهم في المولد لا يصومون وإنما يأكلون الأطعمة ويتنافسون فيها ويكثرون من أنواع الطعام ، وهو خلاف ما جاء عن رسول الله ﷺ في قوله : ((ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ)) ، معناه : من أراد أن يحصل منه احتفاء بذلك اليوم فإن الطريق إلى ذلك بأن يصومه ؛ لأنه يوم ولد فيه الرسول ﷺ وأنزل عليه القرآن فيه ، أما أن يجتمع الناس فيه للتلاوة وقول المدائح وغيرها فهذا من الأمور المحدثة المبتدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان ولم تأت فيها سنة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه " .

ولنلاحظ ؛ لما كان يوم الاثنين -اليوم الذي ولد فيه- يتعلق به عمل مشروع وهو صيام هذا اليوم من كل أسبوع؛ لم يُختلف فيه ، أما تحديد اليوم من السنة هذا لا يترتب عليه حكم مشروع ؛ فكان موضع خلاف بين أهل العلم حكاه ابن كثير رحمه الله .

قال : ((لليلتين خلتا من ربيع الأول)) هذا قول .

والقول الثاني : ((وقيل : ثامنه)) أي اليوم الثامن من ربيع الأول .

والقول الثالث : ((وقيل عاشره)) أي اليوم العاشر من ربيع الأول .

والقول الرابع : ((وقيل لثني عشرة منه)) أي من ربيع الأول .

فهذه أربعة أقوال قيلت في مولد النبي عليه الصلاة والسلام ، وكلها متفقة على أنه في ربيع الأول .

وهناك قول شاذ أنه عليه الصلاة والسلام ولد في رمضان ، قال ابن كثير رحمه الله : ((وقال الزبير بن بكار -وهو متوفى سنة ٢٥٦هـ - ولد في رمضان ، وهو شاذ حكاه السهيلي في "روضه")) أي الروض الأثف في السيرة . فهذا قول شاذ .

فإذاً من المقرر أيضاً : أن النبي عليه الصلاة والسلام ولد في يوم الاثنين ، والشهر من السنة هو ربيع الأول، ولكن في أي يوم من ربيع الأول ؟ هذا محل خلاف بين أهل العلم .

قال الألباني رحمه الله في كتابه صحيح السيرة : " وأما تاريخ يوم الولادة فقد ذكر فيه وفي شهره أقوال ذكرها ابن كثير في الأصل وكلها معلقة بدون أسانيد يمكن النظر فيها ووزنها بميزان علم مصطلح الحديث ، إلا قول من قال إنه كان في الثامن من ربيع الأول ؛ فإنه رواه مالك وغيره بالسند الصحيح عن محمد بن جبير بن مطعم وهو تابعي جليل ، ولعله لذلك صحح هذا القول أصحاب التاريخ واعتمدوه وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى

الخوارزمي ورجحه أبو الخطاب بن دحية ، والجمهور على أنه في الثاني عشر منه والله أعلم " انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

خلاصة ما سبق : أنه عليه الصلاة والسلام باتفاق ولد يوم الاثنين ، وأيضاً في ربيع الأول بلا خلاف ؛ إلا قول شاذ أنكره أهل العلم ، لكن تحديد اليوم من ربيع الأول هذا محل خلاف بين أهل العلم ، وليس هناك شيء يُبنى عليه بالأسانيد الصحيحة تعيين اليوم الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام من شهر ربيع الأول .

وبعد أن عرفنا اليوم من الأسبوع ، وعرفنا الخلاف في اليوم من الشهر ، وعرفنا أيضاً الشهر ؛ فالآن البحث في تحديد العام الذي ولد فيه من بين الأعوام والسنوات ؛ في أي سنة كان مولده عليه الصلاة والسلام ؟

قال : ((وذلك عام الفيل)) ؛ السنة التي ولد فيها عليه الصلاة والسلام : العام المشهور بعام الفيل ، وهو السنة التي جاء فيها أبرهة إلى مكة ليهدم بيت الله الحرام وحصلت القصة المشهورة ، وفي القرآن قال الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ [سورة الفيل] فكان ذلك العام يؤرخ بعام الفيل ، لأن من عادة العرب وغيرهم تأريخ السنوات بالأحداث العظيمة ؛ وهذا حدث عظيم جداً كان في تلك السنة فأرخت فيه وعرفت به .

ففي ذلك العام ولد عليه الصلاة والسلام ، وقيل غير ذلك ، لكن هذا القول هو الأشهر والأكثر ؛ ولهذا ابن كثير رحمه الله لما ذكر في كتابه " البداية والنهاية " الأقوال في ذلك قال : ((وهذا هو الأشهر)) ، وسيأتي تصحيحه له هنا وحكايته عن بعض أهل العلم الإجماع على ذلك ؛ أنه ولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل .

قال : ((بعده بخمسين يوماً)) فكان عليه الصلاة والسلام بعد هذا الحدث بأيام ليست كثيرة ؛ شهر وزيادة عشرين يوم ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : إن هذا الحدث الكبير جاء كالتقدمة والتوطئة لمبعثه صلوات الله وسلامه عليه ، تقدمه من الله ﷻ لنبهه وأيضاً تعظيماً لبلد الله الحرام .

قال : ((وقيل بثمانية وخمسين يوماً)) بعد الفيل بثمانية وخمسين يوماً .

((وقيل بعده بعشر سنين . وقيل : بعد الفيل بثلاثين عاماً . وقيل : بأربعين عاماً)) .
قال ابن كثير رحمه الله : ((والصحيح أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل)) .
قال : ((وقد حكاه إبراهيم بن المنذر الحزامي شيخ البخاري ، وخليفة بن خياط وغيرهما
إجماعاً)) أي حكوا الإجماع على ذلك .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه في مستدرك الحاكم بسند صحيح أن مولد النبي عليه الصلاة
والسلام كان في عام الفيل ، وكذلك جاء عن قيس ابن مخزمة رضي الله عنه - رواه ابن إسحاق ومن
طريقه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي - أنه قال : ((وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ
ﷺ عَامَ الْفِيلِ)) .

فهذه أمور متقررة : أن مولده كان يوم الاثنين ، وأنه كان في ربيع الأول ، وأنه كان في عام
الفيل . أما تحديد اليوم من الشهر هذا محل خلاف بين أهل العلم ولم يأت في ذلك شيء
ثابت يبنى عليه .

ذكر في بعض كتب السير - خاصة المطولة والموسعة - بعض الأشياء المتعلقة بالإرهاصات
لمولد النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا يروى فيه أخبار كثيرة ، وكثير منها لا خطام لها ولا
زمام ، وهي قصص وحكايات وأخبار عارية عن الإسناد الصحيح الذي يثبت به الأمر ،
وبعضها جاءت بأسانيد لكنها غير ثابتة ، وهذا يروى فيه أشياء كثيرة جدا ؛ مثلاً : سقوط
أربع عشرة شرفة من شرف إيوان كسرى ، وأن نار فارس طفأت ، وأنه عليه الصلاة والسلام
وُلد محتوناً مسروراً ، وأشياء كثيرة من هذا القبيل تُذكر ولكن ليس هناك أسانيد صحيحة
ثابتة يبنى عليها ذلك الأمر ولكنها مشتهرة ؛ ولهذا يلاحظ أن المختصرات التي يؤلفها الأئمة
في السيرة يعرضون عن ذكر ذلك فيها لكونها ليس عليها أدلة صريحة أو صحيحة ثابتة ،
لكن تذكر في المطولات بأسانيدها ، أو مع ذكر ما فيها من علة أو نكارة مثلاً في المتن أو
نحو ذلك ؛ فمثلاً إذا رجعت إلى البداية والنهاية لابن كثير - وفيها توسع في السيرة - ذكر
أشياء كثيرة وذكر أسانيدها وأيضاً تكلم على ما في بعض الأسانيد من علة أو ما في بعض
المتن من نكارة أو نحو ذلك ولم يذكرها هنا في كتاب الفصول ، لأن مثل هذا لا تحتمله
أمثال هذه المختصرات .

قال رحمه الله تعالى :

[ومات أبوه و هو حمل ، وقيل: بعد ولادته بأشهر ، وقيل: بسنة ، وقيل: بسنتين ،
والمشهور الأول].

قال رحمه الله تعالى : ((ومات أبوه وهو حمل)) ؛ أي : جنين في بطن أمه صلوات الله
وسلامه عليه ، فيكون بذلك ولد عليه الصلاة والسلام يتيماً ؛ وهذا أبلغ اليتيم وأعلاه مرتبة ؛
لأن بعض اليتيم يكون بعد الولادة ، يتمتع الولد بوالده مثلاً أربع سنوات خمس سنوات ثم
يفقد والده فيكون حظي بشيء من الأبوة في بعض سنوات حياته؛ لكن أن يموت الوالد
والولد جنيناً فيخرج الإنسان إلى الدنيا وليس له أب هذه أبلغ درجات اليتيم . فكان يتيمه
عليه الصلاة والسلام في أبلغ درجات اليتيم وهي أنه مات والده وهو جنين في بطن أمه
صلوات الله وسلامه عليه.

ويتيمه عليه الصلاة والسلام نُصَّ عليه في القرآن ؛ قال الله ﷻ في سورة الضحى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ
يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى: ٦] .

وكانت وفاة والده عبد الله في المدينة ؛ لأنه ذهب في تجارة لوالده عبد المطلب ، وقيل: لشراء
تمر من المدينة فمرض في المدينة وبقي فيها مريضاً إلى أن مات فيها وكان عمره كما ذكر في
كتب السير والأخبار خمس وعشرين سنة ، ودفن في المدينة .

وعبد الله والد النبي عليه الصلاة والسلام هو الذبيح الثاني - كما سبق الإشارة - ، وقد جاء
بإسناد صحيح في تاريخ الطبري وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ذكر قصة عبد
المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام وأنه نذر إن رزقه الله عشرة من البنين على التوالي أن
يذبح أحدهم شكراً وقربة لله ﷻ ؛ فجاءه عشرة من البنين آخرهم عبد الله وكان حبيباً لوالده
، فلما أراد أن يفني بنذره أدركته الشفقة على ولده وحب الولد فأتى بمئة من الإبل وأقرع
بينها وبين ولده - يعني إما يذبحها أو يذبح الولد فيما يترتب على القرعة - فوقعت القرعة
على الإبل ، وقد جاء في حديث يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولا يصح أنه قال :
((أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ)) لكن هذا الحديث لا يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لكن كونه
عليه الصلاة والسلام ابن عبد الله الذي نذر والده أن يذبحه ثم فداه بمئة من الإبل بعد القرعة
التي فعلها هذا جاء بإسناد صحيح إلى عبد الله بن عباس ، وكون جده الأعلى إسماعيل أيضاً

ذبيحاً أمر الله والده إبراهيم الخليل في ابتلاء له وامتحان أن يذبح ولده فاستشار ولده إسماعيل فقال : "افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله صابراً " واستسلم ، وأخذ السكين ووضعها على رقبة ابنه لينفذ ما أمره الله ﷻ به ، والأب مستسلم والابن كذلك مستسلم ، ففداه الله ﷻ بكبش . فالنبي عليه الصلاة والسلام ابن الذبيحين : الأول إسماعيل ، والثاني عبد الله .

قال : ((وقيل بعد ولادته بأشهر ، وقيل بسنة ، وقيل بسنتين)) .

قال : ((والمشهور الأول)) أي أنه عليه الصلاة والسلام مات أبوه وهو حمل . وقد جاء هذا في صحيح مسلم عن محمد بن شهاب الزهري ، وروى الحاكم بسند حسن عن قيس بن مخزومة رضي الله عنه قال : ((تُؤَيَّيُّ أَبُوهُ وَأُمُّهُ حُبْلَى بِهِ)) . وابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه زاد المعاد صحَّح أن موت والد النبي عليه الصلاة والسلام كان والنبي عليه الصلاة والسلام حمل في بطن أمه .

قال رحمه الله تعالى :

[واسترضع له في بني سعد ، فأرضعته حليلة السعدية كما روينا ذلك بإسناد صحيح ، وأقام عندها في بني سعد نحواً من أربع سنين ، وشُقَّ عن فؤاده هناك ، فردته إلى أمه] .

ذكر رحمه الله تعالى هنا ما يتعلق برضاعة النبي عليه الصلاة والسلام فقال : ((واسترضع له في بني سعد ، فأرضعته حليلة السعدية)) ؛ من لبن ابنها عبد الله . وأبو النبي عليه الصلاة والسلام من الرضاع - زوج حليلة السعدية - هو : الحارث بن عبد العزى من بني هوازن . قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه زاد المعاد : " واختلف في إسلام أبويه من الرضاع فالله أعلم بذلك " فهل حليلة وكذلك زوجها الحارث والد النبي عليه الصلاة والسلام من الرضاع أسلما ؟ هذا محل خلاف .

وكانت أيضاً أرضعت النبي عليه الصلاة والسلام ثوية مولاة أبي لهب ، وأرضعت معه حمزة بلبن ابنها مسروح ، ولهذا حمزة عم النبي ﷺ هو أخ له من الرضاع ؛ رضع هو وإياه من ثوية مولاة أبي لهب .

قال : ((كما روينا ذلك بإسناد صحيح)) ؛ في مسند الإمام أحمد ، ومستدرک الحاكم ، وغيرهما .

قال : ((وأقام عندها في بني سعد نحواً من أربع سنين ، وشقَّ عن فؤاده هناك فردَّته إلى أمه)) ؛ حليلة كانت حريصة جداً على بقاء النبي ﷺ عندها ، لكن لما حصلت حادثة شق الصدر خافت من هذه المسؤولية وردَّته إلى أمه .

وحادثة شق الصدر للنبي عليه الصلاة والسلام قد أفاد ابن حجر رحمه الله في فتح الباري وغيره من أهل العلم أنها تكررت أكثر من مرة ؛ فبعض العلماء ذكروها مرتين ، ومنهم من قال ثلاث مرات ، ومنهم من قال أنها حصلت أربع مرات . والذي ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى أن شق الصدر وقع ثلاث مرات : مرة عند الطفولة في سن الرابعة من سني حياته عليه الصلاة والسلام ، والثانية: عند مبعثه ﷺ ، والثالثة: عند عروجه إلى السماء صلوات الله وسلامه عليه.

قال رحمه الله تعالى :

[فخرجت به أمه إلى المدينة تزور أخواله بالمدينة ، فتوفيت بالأبواء وهي راجعة إلى مكة وله من العمر ست سنين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وقيل : بل أربع سنين ، وقد روى مسلم في صحيحه " أن رسول الله ﷺ لما مر بالأبواء وهو ذاهب إلى مكة عام الفتح استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، فبكى وأبكى من حوله ، وكان معه ألف مقنع - أي : بالحديد- "] .

ثم ذكر ما يتعلق بموت أم النبي ﷺ وقصة وخبر موتها ؛ قال : ((فخرجت به أمه إلى المدينة تزور أخواله بالمدينة)) ؛ أخواله من بني عدي بن النجار ، وهذه الأخوة من جهة جده عبد المطلب بن هاشم ، لأن هاشم لما مر بالمدينة في تجارته للشام تزوج سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار ؛ فله عليه الصلاة والسلام أخوال بالمدينة فخرجت به أمه إلى المدينة تزورهم .

((فتوفيت بالأبواء وهي راجعة إلى مكة))؛ يعني ماتت في طريق عودتها من المدينة إلى مكة .

((وله من العمر ست سنين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وقيل : بل أربع سنين)) ؛
فالشاهد: أن وفاة أمه ﷺ كان أيضاً في سن مبكرة من عمره ؛ فقيل: ست سنوات ، وقيل:
أربع سنوات .

قال : ((وقد روى مسلم في صحيحه " أن رسول الله ﷺ لما مر بالأبواء وهو ذاهب إلى
مكة عام الفتح استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، فبكى وأبكى من حوله)) ؛ جاء
في الحديث أنه استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، واستأذنه في الاستغفار لها فلم يأذن له .

قال : ((وكان معه ألف مقنّع أي: بالحديد)) ؛ الحديث كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى
في صحيح مسلم ، وليس فيه ذكر المكان ولا أيضاً ذكر لعدد من كان معه ؛ لكن فيه
استئذانه عليه الصلاة والسلام لربه في زيارة قبر أمه فأذن له في ذلك ، واستأذن في أن
يستغفر لها فلم يأذن له .

قال رحمه الله :

[فلما ماتت أمه حضنته أم أيمن وهي مولاته ، ورثها من أبيه ، وكفله جده عبد المطلب
، فلما بلغ رسول الله ﷺ من العمر ثماني سنين توفي جده ، و أوصى به إلى عمه أبي
طالب ، لأنه كان شقيق عبد الله ، فكفله وحاطه أتم حياطة ، ونصره حين بعثه الله أعز
نصر ، مع أنه كان مستمراً على شركه إلى أن مات ، فخفف الله بذلك من عذابه كما
صح الحديث بذلك] .

قال : ((فلما ماتت أمه حضنته أم أيمن رضي الله عنها وأرضاها)) ؛ وأم أيمن اسمها : بركة
الحبشية ؛ وهي من السابقات للإسلام ، وبقيت حية إلى ما بعد وفاة النبي عليه الصلاة
والسلام ، فماتت بعده ﷺ بخمسين يوماً.

((وهي مولاته ورثها من أبيه)) ؛ لأنه ورث من أبيه كما ذكر في كتب السير خمسة أجمال
وهذه الجارية ؛ فكانت أم أيمن رضي الله عنها وأرضاها حاضنة النبي عليه الصلاة والسلام
ودايته ، يقال لها: الحاضنة ويقال: الداية ؛ وهي المرأة التي تقوم على رعاية الصغير وتربيته
ولاسيما عند فقد أمه . وزوجها ﷺ من زيد بن حارثة وأنجبت من زيد : أسامة بن زيد

الصحابي الجليل رضي الله عنه وعن زيد وعن الصحابة أجمعين . جاء في صحيح مسلم ((قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُهَا فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالَا لَهَا : مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا)) ؛ فهذه أم أيمن حاضنة النبي عليه الصلاة والسلام أكرمها الله بالسبق للإسلام والبقاء مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن توفي فكانت وفاتها بعده ﷺ .

قال : ((وكفله جده عبد المطلب ، فلما بلغ رسول الله ﷺ من العمر ثماني سنين توفي جده ، وأوصى به إلى عمه أبي طالب)) ؛ وعم النبي عليه الصلاة والسلام أبو طالب هو الأخ الشقيق لوالده عبد الله ، كان جد النبي عليه الصلاة والسلام عظيم الحفاوة به والعناية به والإجلال له في مجلسه وعلى فراشه ؛ مع أنه كانت له هيبة لدى الناس ، لكن حظي النبي عليه الصلاة والسلام من جده بعناية عظيمة وحفاوة كبيرة ، ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه أبي طالب .

((لأنه كان شقيق عبد الله - والد النبي عليه الصلاة والسلام - فكفله ، وحاطه أتم حيطة ، ونصره حين بعثه الله أعز نصر ، مع أنه كان مستمراً على شركه إلى أن مات)) ؛ والله ﷻ في خلقه الحكمة البالغة ، لكن من يقرأ أخبار أبي طالب - عم النبي عليه الصلاة والسلام - في نصرته للنبي ﷺ وحياطته له وذبه عنه ومدافعتة له يرى عجباً ، وكانت له هيبة ومنعة ؛ فنصر الله ﷻ نبيه ﷺ بعمه أبي طالب مع أنه بقي كافراً !! وحرص النبي عليه الصلاة والسلام في حياته إلى اللحظات الأخيرة من عمر عمه على هدايته للإسلام ، وجاء في الصحيح ((لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ: أَيُّ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرَعَّبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) فحزن النبي عليه الصلاة

والسلام لذلك حزناً شديداً عظيماً وأنزل الله له تسليية قوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] ، ثم قال عليه الصلاة والسلام كما جاء في الصحيح: ((وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحَ عَنَّكَ)) ، وانتبه لقوله: ((مَا لَمْ أَنُحَ عَنَّكَ)) !! لأن الأمر شرع ليس مجرد عاطفة ، فنزل قول الله ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ [التوبة: ١١٣] فلم يستغفر ﷺ له .

فأبو طالب حاط النبي عليه الصلاة والسلام ونصره وآزره وصبر أيضاً في الشَّعب - كما ستأتي القصة معنا لاحقاً- على أذى المشركين لمدة تقارب الثلاث سنوات ، حتى إن ابن كثير رحمه الله في كتابه البداية والنهاية قال كلمة هي مستفادة مما تقدم ، قال : " لولا ما نَحَنَّا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب وترحمنا عليه " لأن القصص التي يقرأها الإنسان في نصرة أبي طالب للنبي عليه الصلاة والسلام أمرها عجب ، وفي يوم من الأيام اشتد أذى المشركين على النبي عليه الصلاة والسلام وجاءوا لأبي طالب وتهددوه أشد تهديد ؛ فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وكلمه في هذا الأمر وطلب منه أن يترك هذه الدعوة ، قال تقينا وتقي نفسك من أذى هؤلاء !! فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه)) فذهب عمه ، ثم استعبر وقال له في ذلك ، فأخبره عمه أنه باقٍ على نصرته إلى أن يموت ، وكتب أبو طالب في ذلك قصيدة عجيبة وهي مشهورة وذائعة في كتب السير والتاريخ قال فيها مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وانظر أيضاً أعجب وأعجب قال :

وعرضت ديناً قد عرفتُ بأنه	من خير أديان البرية دينا
---------------------------	--------------------------

طيب! لماذا لا تسلم وكل هذه المعارف توفرت وحصلت ما السبب ؟ قال في البيت الخاتم هذه الأبيات :

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

يعني لولا أنني أخشى أني أعير في قريش وأن أسب وأن يقال: صبأ أبو طالب وترك دين الآباء والأجداد " لرأيتني سمحاً بذاك مبينا " ، لكنه بقي وامتنع عن الإسلام إلى أن توفي وهو يقول: " هو على ملة عبد المطلب " .

ولهذا قال ابن كثير رحمه الله هنا لما ذكر نصرته للنبي عليه الصلاة والسلام : ((مع أنه كان مستمراً على شركه إلى أن مات فخفف الله بذلك من عذابه كما صح بذلك الحديث))
؛ والحديث الذي يشير إليه ابن كثير رحمه الله هو في صحيح البخاري ومسلم عن العباس عم النبي قال : ((يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحْوِطُكَ وَيَعْصَبُ لَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)) .

وأشرت إلى القصة التي في الصحيح من حديث أبي هريرة وفيها قال عند موته "هو على ملة عبد المطلب" ، وجاء في حديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : إِنَّ عَمَّكَ الشَّيْخَ الصَّالِّ قَدْ مَاتَ فَقَالَ : انْطَلِقْ فَوَارِهِ)) .

ومن القصص العجيب في هذا الباب : قصة إسلام والد أبي بكر الصديق وكان متأخراً فلم يسلم إلا في عام الفتح في مكة ، فبعد الفتح جاء أبو بكر رضي الله عنه بوالده إلى النبي عليه الصلاة والسلام - وكان لم يسلم بعد - وكان شعر لحيته ورأسه أبيض كأنه ثغامة ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((لماذا جعلت هذا الشيخ يأتينا ألا أخبرتني أنا الذي آتية)) ولا شك أن مثل هذا له تأثيره في القلوب ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام قال لوالد أبي بكر تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فوضع يده في يد النبي عليه الصلاة والسلام ونطق الشهادة ، بكى أبو بكر رضي الله عنه في تلك اللحظة ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((ما يبكيك ؟)) فقال رضي الله عنه : لأن تكون يد عمك مكان يد والدي ويسلم ويقر الله عينك أحب إلي .

وقد تمحل بعض أهل الأهواء والبدع وحاولوا إثبات إسلام أبي طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام وذكروا في ذلك أخبار واهية وروايات مختلفة مكذوبة وحكايات لا تصح ، والحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه الإصابة أطلال في نقد تلك الروايات وبيان عدم صحتها وأنها أشياء مختلفة لا أساس لها ، وأيضاً ذكر الأشياء الثابتة الصحيحة الدالة أنه إنما كان موته على ملة عبد المطلب وليست على ملة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ومن الحكم التي ذكرت في ذلك : قول ابن كثير رحمه الله " لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ، ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولا جترؤوا عليه .. "

ومن أعظم ما يستفاد من ذلك : أن الهداية بيد رب العالمين ، وبعض الذين كانوا عند أبي طالب يقولون له : " بل على ملة عبد المطلب " بعضهم أسلم وحسن إسلامه والله تعالى الحكمة البالغة في خلقه . فالأمر لله والهداية بيده ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ ﴾ [الفصل: ٥٦] ، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]

فالهادي هو الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيُهْدِ مِنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨] ؛ وهذا مما يستوجب على العبد أن يكون قوي الصلة بالله دوماً وأبداً ؛

يسأل ربه الهداية ، يسأله الثبات ، يسأله التوفيق ، وكان أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام : ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) ، وقالت له أم سلمة : أَوَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ ؟

قَالَ : ((نَعَمْ مَا مِنْ خَلْقٍ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَرَاغَهُ)) . فالهداية منة الله وهي بيده تعالى ، وهو

جل وعلا الهادي إلى سواء السبيل .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

* * *